

الاستعمار الاسباني الفرنسي بالمغرب

(1898 - 1927)

تأليف : فيكتور موراليس لسكانو

نشر : دار ثقون الواحد والعشرين باسبانيا - الطبعة الاولى مدريد 1976
(202 صفحة من الحجم المتوسط)

عرض وتقديم : محمد الشاوني

بالاضافة الى المقدمة ، يتضمن هذا الكتاب ستة مقالات « تدور حول النشاط الاستعماري الجديد (I) الاسباني - الفرنسي بالمغرب » (ص . الدولي) . وذلك في الفترة ما بين 1898 و 1927 ؛ اي من تاريخ فقدان اسبانيا لآخر ممتلكاتها الاستعمارية في أمريكا : كوبا سنة 1898 الى نهاية حرب المقاومة في الريف سنة 1927 .

اما الفصول التي يتضمنها الكتاب فهي :

- 1) اسبانيا بالمغرب : عقد « التغفل السلمي » (1900 - 1910) .
- 2) المشروع الاستعماري الجديد الاسباني في شمال المغرب (1906 - 1923) .
- 3) مناجم الريف والراسمال المالي الاسباني (1906 - 1930) .
- 4) تطور التجارة الاسبانية المغربية (1900 - 1927) .
- 5) التصعيد العسكري في منطقة الحماية الاسبانية وانعكاساته على صعيد الميزانية .
- 6) الحماية الفردسية بالمغرب : التهدئة والاستغلال .

ومؤلف الكتاب أستاذ في التاريخ المعاصر بجامعة مدريد « ولقد سبق له أن نشر عدة مقالات حول معلات السياسة الخارجية الاسبانية ابان مرحلة الاستعراش » . ويعد فيكتور موراليس من الجامعيين الاسبانيين المهتمين بدراسة السياسة الاسبانية في مستعمراتها عموما وفي المغرب بشكل خاص . ان هذا الكتاب « يتطرق لأول مرة في الاسطوغرافيا الاسبانية - لدراسة القوى المحركة للاستعمار الاسباني ، بعد 1898 ، في المغرب . وعلاوة على ذلك يحاول تكميم حجم المصالح الاسبانية في شمال افريقيا (...) ويشير الكاتب كذلك الى الانشقاق الذي ادى اليه المشروع الاستعماري وسط الطبقة السياسية والرأي العام في اسبانيا الاستعراش » (2) .

ان أهمية كتاب « الاستعمار الاسباني - الفرنسي بالمغرب » تأتي من كونه المؤلف الاول الذي يتناول وبشكل تفصيلي الى حد ما ، الجانب الاقتصادي للاستعمار الاسباني لبلادنا . ويعمل الكاتب على تبيان حجم

وأهمية المصالح الاقتصادية للاستعمار الإسباني في المغرب اعتمادا على احصائيات ودراسات اقتصادية الخ ... مبرزا بذلك وجه الاستغلال الاقتصادي الذي فرضته الاحتكارات والرأسمال المصرفي والمالي الإسباني على بلادنا . وبديهي أن خلاصات عمل فيكتور لسانكو تفند بعض الادعاءات القائلة ان اسبانيا خلافا لفرنسا ، لم تستفد اقتصاديا من استعمار المغرب ، وأن هذا الاحتلال الاستعماري لم تدفع اليه مصالح الاحتكارات والرأسمال الإسباني بقدر ما هو راجع الى اسباب ايدولوجية / دينية : نشر النصرانية أو تنفيذ وصية ملكة اسبانيا ازابيل الكاثوليكية ! ان فكتور لسانكو يبين بالبرهان والحجج الدامغة ، أن وراء الاستعمار الإسباني لبلادنا مصالح الرأسمالية الإسبانية الهزيلة والمتخلفة ...

ولئن كان الكاتب وبحكم موقعه ومنطقا ، وبحكم موقعه ومنطقاته السياسية يولي أهمية خاصة لانعكاسات استعمار المغرب على الاوضاع الاقتصادية والسياسية في اسبانيا مبرزا الدور المعادي للاستعمار الذي اضطلعت به القوى السياسية المعارضة في اسبانيا والاحزاب والنقابات العمالية بشكل خاص . فانه يمدنا كذلك بتحليل دقيق ومعلومات هامة حول مختلف القوى والاحتكارات وجماعات الضغط التي كانت تدفع في اتجاه استعمار المغرب والقوى التي كانت من داخل المؤسسات العسكرية والسياسية والاقتصادية للنظام الإسباني تعارض المشروع الاستعماري .

ويولي الكاتب أهمية خاصة لمناجم الريف والأهمية التي كانت تكتسيها بالنسبة للرأسمالية الإسبانية ودور هذه المناجم في اندفاع اسبانيا لاستعمار بلادنا . وتحظى التجارة الإسبانية - المغربية خلال مرحلة 1900 - 1927 باهتمام خاص يتناول الكاتب حجمها ومحاورها ...

ومما يزيد من أهمية كتاب « الاستعمار الإسباني - الفرنسي بالمغرب » كونه يتضمن جزءا هاما مخصصا لاحدى الجوانب الأساسية ، والذي لا يزال مطهوسا ، في التاريخ المعاصر لبلادنا . ويتعلق الامر بالحرب التحريرية التي خاضتها قبائل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم هذا الاستعمار الإسباني أولا و ضد الحلف الإسباني - الفرنسي ثانيا . ويركز على تبين حجم الخسائر الإسبانية و ثمن الحرب على جميع المستويات مع الادلاء ببعض المعلومات حول التناقضات التي عاشتها المؤسسة العسكرية الإسبانية آنذاك اما المقالة الاخيرة التي تتطرق للاستعمار الفرنسي بالمغرب فانها لا تتعدى كونها تكرارا لما كتبه بعض المؤرخين فضلا عن كونها هزيلة بالمقارنة مع المقالات الأخرى .

وتكتسي مقدمة الكتاب أهمية خاصة لان لسانكو لا يكتفي بتقديم مقالاته الست بل يكشف النقاب على المنهج الذي اتبعه لوضعها ويطرح

الأسس الابستمولوجية التي يعتمدها في كتابة التاريخ . ويقول الكاتب : « ان بعض المقالات تتطرق لمرحلة التغلغل السلمي ، والبعض الآخر للتصعيد العسكري ولاصلاحات التي ادخلها الاوروبيون ...

وفي كل هذه المقالات أخذنا بعين الاعتبار الاطار العام الذي يمكن انطلاقا منه استعادة مدلولها لاكثر عمومية (...) وفي هذه الحالة يتعلق الامر بالاطار العام للفهم ، وبمجموع القوى الحية التي كانت تحرض الامم لاوروبية على مصادر السيادة السياسية والمقدرات الاقتصادية والمالية للامبراطورية الشريفة : أي امبريالية ذلك العهد « (ص 2) ...

... « ولقد أدخلنا في الفعل التاريخي الذي ندرسه ، في اطار الامبريالية التي تحدها القوى الدولية المتواجدة ، الدور الذي اضطلعت به الاحزاب السياسية المعادية للاستعمار في فرنسا واسبانيا والتي رفعت ، باستمرار ، تقريبا ، احتجاجها من صفوف المعارضة ضد أهداف وأساليب المشروع الاستعماري » . (ص. 2) .

« ان نشاط الاستعمار الجديد الإسباني في منطقة نفوذه أولا ، و حمايته فيما بعد ... قد اختلف عن نشاط الاستعمار الجديد الفرنسي في الاراضي الشاسعة المعينة لحكومة باريس لمباشرة وصايتها » (ص 2) .

« لقد ركزنا الجزء الاساسي لهذه المقالات ، باستثناء الاخيرة ، على دراسة مسار التدخل السلمي والتصعيد العسكري في شمال المغرب اثنى حدود حدود نهاية الحملات العسكرية في الريف سنة 1927 . واكتفينا بشمال الامبراطورية ، لأن هناك جرت أعمال الاستعمار الجديد الإسباني الاكثر دلالة ؛ اما الجنوب ، المنطقة الخليفية للجزر الخالدات الشهيرة (...) فلا تظهر الا بشكل مشتمت لأنه خلال المرحلة الاولى لفرض الحماية كانت بعيدة عن أن تكون جسرا جيويا بالنسبة للاستراتيجية الاوروبية في افريقيا .

في الصفحات التالية اردنا الاجابة على مجموعة من التساؤلات : من هي جماعات الضغط المتبججة في شبه الجزيرة ، والاحزاب والمنظمات المرتبطة بالاتجاه **المغرباوي** (3) الإسباني خلال سنوات 1898 - 1927 ؟ ماذا كان مستوى مساهمة الرأسمالية الباسكية والكطالانية في انشاء المصالح الضرورية التي كانت تتطلبها المدن الموصى عليها ومواقع السيادة القديمة (4) والمنطقة الخليفية التي كانت تحيط بها والتي كانت تصلح كجسر أو كحزام وقائي ؟ هل شكل المشروع الاستعماري فضلا مخربا بالنسبة لمالية مرحلة الاستعراش وبالنسبة للتوافق الغير ثابت لأحزاب النظام وبالنسبة لطبقة مجتمع شبه الجزيرة ؟ » (ص. 4) .

... « اننا فضلنا عدم تقديم سرد للأحداث ، وانما التشييد العقلاني للأجوبة التي يفرضها تساؤل الابحاث والتي طرحها علينا المنطق تارة

المقالات ، (ص) .

ويبقى هذا الكتاب بالرغم من الثغرات والهفوات التي يحملها في حياته ، مرجعا أساسيا بالنسبة لكل المهتمين بالتاريخ الحديث والمعاصر لبلادنا .
واخيرا وليس آخرا ، يتضمن الكتاب قائمة مجموعة من الأبحاث والمؤلفات الهامة التي خصصها الكتاب الفرنسيون أو الانجليز (حول حرب الريف التحررية) أو الاسبانيين لتاريخ بلادنا أو لدراسة أحد أوجه الاستعمار الاسباني والفرنسي ببلادنا =

الهوامش :

- (1) يستعمل فيكتور موراليس مفهوم « الاستعمار الجديد » للدلالة على الشكل القديم للسيطرة الاستعمارية أي الاستعمار المباشر . وهذا الاستعمال مخالف للمداول المتداول لهذا المفهوم .
- (2) من دعابة دار النشر للكتاب ، مثبتة في غلاف الكتاب .
- (3) يتعلق الأمر بما يسمى المروكيسمو وهو الاتجاه الذي كان يجمع كل الأطراف التي كانت تعمل وبأساليب شتى على استعمار المغرب .
- (4) إن الكاتب يعني بهذا التعبير مدينتي سبتة ومليلية السليبتين .
- (5) يتعلق الأمر بما يدعى : الافريكانيسمو

والحدس قارة أخرى و « الحس المهني » في أغلب الحالات . إذن ، إن هذه المقالات ، هي النتيجة ، الجواب المشيد على قائمة أسئلتنا وعلى تراكم التساؤلات التي يولدها بشكل مستمر ، مجال كل دراسة أو بحث » . (ص 5)
إن الأسطوغرافيا الاسبانية كانت شحيحة فيما يتعلق بأمسالة المغربية .
وإن الأسباب التي تفسر ذلك واضحة فضلا عن كونها لا زالت تحدد إلى الآن اللامبالاة ، أو هي نتيجة للإسهامات في قائمة مكتبة الافريقاوية الاسبانية (5) وفي العديد من هذه المساهمات نلمس أنها لا زالت تجتر أهجة انتصارية ... (ص 5)

« لقد أردنا الاحتياط من النزعة الانتصارية كما قلنا ، لأن تقديم كل واقع مضى يتم عبر صياغة الماضي انطلاقا من الانقراض والاطلال الموجودة . ونعتبر أن النزعة الانتصارية غير نزيهة وغير مقبولة في الوقت الحاضر . فضلا عن كل ذلك أنها تكشف تطفلا ايديولوجيا مزعجا من الأفضل تلافيه ...

وإذا لم نكن بجانب النزعة الانتصارية التي ميزت الافريقاوية المغربية ، فلا نريد غض الطرف عن الرجوع الضروري إلى بعض المراجعات التي تكتسي ضرورة لا تناقش » (ص 6) .

وبصدد نقد ميكيل مرتين مؤلف كتاب « الاستعمار الاسباني بالمغرب » الذي يدعي أن الإحصائيات حول ما قامت به اسبانيا في منطقة استعمارها ، منعمة يقول لسانكو :

... « إن الكثير أو القليل (الذي قامت به اسبانيا في المغرب) ، إن ثمن المشروع الاستعماري الجديد ببساطة ذلك العهد ، وإن ضحايا الحرب والشروع السياسية والايديولوجية في صفوف الأمة خلال المرحلة المحددة هنا لا يمكن أن تقاس بسلم الحسابات الذي تقدمه لنا التحريفية باستعجال .
إن ما يحدث هو كون المواد الوثائقية مشنتة وأحيانا غير كاملة أو متناقضة ... تلك هي مقدمة بايجاز ، الخطوط العريضة للأسباب التي تشكل أساس هذه المقالات الست ... وإن ما نطمح إليه بتقديم هذه الأعمال للقارئ ، هو الاسترجاع ، المكتم كما أمكن ذلك ، للنشاط الاسباني في شمال المغرب ودمج عوامل ومتغيرات بأفق تفسير مرضي للجانب المطروق ، واقتراحات في النص وفي الهوامش لأعمال أخرى ، (ص. 8) .

ولا يمكن ختم هذه المقدمة دون الإشارة إلى عدم تكويننا بشكل كاف في الشؤون العربية : إننا نجهل اللغة العربية وإن معرفتنا للعالم الاسلامي كتنبية في الغالب ... وإن وعينا بهذه الثغرات والانعكاسات التي يمكن أن تكون لها على المقالات الست التي تكون هذا الكتاب ، قد أدى بنا إلى اختيار وجهة نظر أوروبية مركزية ، كرد فعل للدفاع الذاتي بدون شك ، لكتابة كل هذه